

الإنسان وموقفه من الكون في العصر اليوناني الأول

١ - دراسة حياة الإنسان وموقفه من الكون تنهض - بادىء ذى بدء - على دراسة الفكر وتطوراتهِ المتباينة في مختلف مذاهبه وشيعه ، وتسلك لتحقيق سبيلها هذا طريقا موضوعيا بعيدا عن التعصب والهوى ليتسنى للفكر ان يصل عن هذا السبيل الى الغاية التي يرجو من ورائها معرفة تلك الحياة وتقييمها تقييما سليما مخلصا . ولا يتم هدف كهذا الا بسبيل اطلاق الفكر من قيده ليعود حرا لا يلتزم التحيز نحو نظرية سائدة ، او دائرة محددة ، وفي انطلاقه الحثيث ذاك سيستوعب حكمه ولا شك المذاهب كلها ، وليس وراء موقفه المتميز هذا غير التوصل الى المعرفة بصورها الصادقة والحكم عليها حكما عقليا لا تقليديا ولا ظنيا .

وفق هذا وذاك فان التماس الآراء وموضوعاتها لدى شخصية الفيلسوف وما يحيط بها من عوامل خاصة أمر لا يمكن ان تتنكر له الدراسات الموضوعية ، باعتبار ان الفكر الفلسفي يتشخص بفرديته الواضحة ، بينا صور هذه الفردية تتباين بعضها عن البعض الآخر باختلاف الظروف والعصور . فمثلا ظهر الفكر اليوناني لدى الاوائل وهو يحمل صفة التعادل الواضح بين الباطن والظاهر أو بالاحرى بين الصورة والمضمون ، ولكن الامر اختلف عند ظهور السوفسطائية والسقراطية او الاديان السماوية . ولسنا نقصد بفردية الفلسفة انها بقيت في اطارها الداتي ، بل استوعب كثير منها مقومات العصر الذي نشأ فيه ، ولكنها في غاية الشوط نداء باطنى يصح به الفلاسفة فيسمع صداه وتظهر معاملة متباينة المشارب والآراء حتى ما يخص منها مشكلة واحدة بعينها . . ولأجل ذلك ربطت الفلسفة مصيرها بالإنسان الفرد ، وعبرت من جهة أخرى عن تأثيراتها بروح العصر الذي نشأت فيه . فكان بين فرديتها من جهة ، واجتماعيتها من جهة أخرى ما يدعو الباحث الى التأمل الطويل في النتائج التي انتهى اليها هذا الموقف ، سواء لدى المحترفين لها أو الهواة . فتاريخ الفلسفة بهذه الفطرة دراسة ترتبط بتاريخ الفكر ذاته وتطوره . باعتبار ان الفلاسفة - كما يقول المفكر البريطاني رسل - نتائج واسباب في آن معا ، هم نتائج

* الدكتور جعفر آل ياسين استاذ الفلسفة الاسلامية المساعد بجامعة الكويت ويقعد . له دراسات ومقالات عديدة في الفلسفة الاسلامية وتاريخها . من كتبه كتاب : « صدر الدين الشيرازي مجدد الفلسفة » دار المعارف ، بغداد ١٩٥٦ .

الظروف الاجتماعية ولما يسود عصورهم من سياسة ونظم اجتماعية ، وهم كذلك اسباب - ان اسعهم الحظ - لما يسود العصور التالية من عقائد تشكل السياسة والنظم الاجتماعية . (١)

والفلسفة في مرحلتها هذه تسجل مظهرارفيعا للتقدم الحضارى في العصر الذى تبرز فيه لان الفحص الناقد القائم على التحليل والتأمل لا يتيسر لفكر بدائي لا يدرك المشكلة وعمقها . فهي حكم يصدره العقل على الاشياء ولا يحمل صفة المشاركة في الاحكام الاخرى الا من حيث انه صادر عن تأمل عقلي رفيع . وليس من واجبها أن تحدد موقعها نحو الاشياء فذلك أمر لا تحاوله في مرحلتها النقدية على أقل تقدير ، وان صححت محاولتها له فان موضوع فحصها - لا منهجها - سيعود آخر الشوط أمراً مستقلاً عنها في حقول علمية أخرى ، كما ظهر استقلال العلوم الانسانية عن حضيرتها الفلسفية الاولى .

والمشكلات التي تتفحصها الفلسفة ليست بالجديدة مطلقاً بل هي نبع قديم للتجربة الانسانية تعاود اسئلتها عنها بروح عتيد يساير حضارة العصر الذى ظهرت فيه . وسبيل فحصها لهذه المشكلات هو ما يؤدي الى طبعها بفكرة النقد التحليلي لنلك التجارب ، وهو حقاً ما يمثل تيارها العميق ، وما يمثل جوهر التيار من عصر الى عصر ، وبين أمة الى اخرى .

٢ - ومن الصعب حقاً ان نحدد بدءاً زمنياً لهذه السمة من التفكير طامها هذا النوع من التساؤل عن الكون طرقته أمم وشعوب شتى في الشرق وفي الغرب ، فهو واسع الحدود متشعب المعالم لا يضبطه ضابط من تاريخ . الا انه اغلب ما تنهض عليه الدراسات الحديثة هو اعتبار اليونان البناة الاوائل لهذا الصرح الشامخ . وامنني بذلك انهم اخضعوه لصناعة منهجية مالوا بها نحو العلم والعلية وضرورتها ، بحيث عادت أفكارهم تحمل حلولاً لمشكلاتهم العقلية والكونية قد لا تختلف في النتائج عن الحلول الشرقية ، ولكنها تتباين في السبيل والوسيلة تبايناً واضحاً تعددت جوانبه بتعدد جوانب الفكر الفلسفي وطبيعته . حيث كانت الفلسفة لديهم عنصراً هاماً من عناصر الحياة العقلية ، مما يمكن القول معه ان أية محاولة لفهم حضارة الغرب القائمة ومسايرها القديمة لا تتم الا بالاعتماد على اصول الفكر اليوناني اعتماداً دقيقاً ، باعتبار ان هذا الفكر جاء خلقاً اصيلاً على غير مثال ، فعبر عن حضارة عصره تعبيراً فنياً بارعاً ، سجل فيه مواقفه نحو الكون في أعماق المعاني الانسانية تحديداً وانساقاً ، متخذاً سبيله النظري البحث ، ومبتعداً بطبيعته عن شوائب الاساطير وتأثير الشعوذة الدينية المفتعلة . فكانت تلك منجزات ضخمة في تطور حياة الانسان الفكرية ، ساعدت والى حد كبير في تحقيق حرية الفرد واستقلاله عن التأثيرات اللاشعورية التي تتحكم فيه . ولم تكن الفلسفة لديهم توضيحاً نظرياً للكون فحسب ، بل هي (موقف) عملي للحياة يتميز فيه الافراد وتنتظمه الجماعات ، ويفتعل مع الحضارة افتعلاً كاملاً كما يفتعل الفن في نزعة الفنان سواء بسواء .

وسنلمس من خلال دراستنا هذه مدى الابتكار والجدة التي خلقها الانسان اليوناني قبل ستة وعشرين قرناً من الزمان تطرق فيها الى علم الكون Cosmology والى خلقه Cosmogony ثم الى الباطن الخفي للطبيعة Metaphysics فصورها لنا وكأنها سلسلة من الافكار والنتائج متصلة الحلقات بحضارته السابقة ونظرتها الشاملة ، غير ملتزم بملاحظات الذات واحساساتها نحو الكون الخارجي . وكان في موقفه هذا ينطلق من دائرة عقلية نحو الحكم على الطبيعة يندر مثلها في عصور الحضارة المتقدمة . والمقصود بعبارة (حضارته السابقة) تلك المدينة التي مثلتها مقاطعة (كريت)

١ - انظر : برتراند رسل - تاريخ الفلسفة الغربية (الترجمة العربية) - القاهرة ، نشرة وزارة التربية والتعليم ، الطبعة الاولى ، ١٩٥٧ ، ص : ٢/١

الإنسان وموقفه من الكون في العصر اليوناني الأول

عام (٢٥٠٠) قبل الميلاد وسُمّيت (بحضارة مينوس) وما امتازت به من تقدم كبير في الفن والتجارة والعلاقات الخارجية مع الدول القريبة منها خاصة بلاد النيل . وأطلق على مجموع هذه المعالم الحضارية الراقية التي انتقلت عام (١٦٠٠) قبل الميلاد الى رقعة اليونان المحددة اسم (المدنيّة الميسينية) وهي آخر حلقة للحاضرتين الكريتية والآخية التي تلقفها الشعب اليوناني الاصيل (٢) .

٣ - وعلى ضوء ما قلناه فقد تنازعت الفكر اليوناني الاول صورتان اولاهما علمية عقلية ، وثانيتها صوفية عرفانية ، سارتا بخطين متوازيتين على ما بينهما من تنافر وتباين . وكانت حصيلة الموقف الاول هي الغالبية كما لا كيفا خاصة في المرحلة اليونانية المبكرة . وفي الصورتين ظلال عميقة المسارب تمثل جانباً كبيراً من نظرة الانسان نحو الكون ونحو ذاته وتبصرها . وتمتد تاويل هذه الصور الى عصر الشعراء اليونانيين المتجولين . وتبرز هنا شخصية الشاعر الخالد هومر (٣)

٢ - المقصود بعبارة (الشعب اليوناني) هو مزيج من سكان البحر الابيض المتوسط من كريتيين وآخيين وغزاة مختلفين كالأيونيين والدوريين الذين جاءوا من الشمال وصطنعوا المدنيّة الكريتية كلها تقريبا .

٣ - شخصية الشاعر العظيم هومر (القرن العاشر او التاسع قبل الميلاد) نسيج وحدها في الاداب العالمية ، ذلك لما يثار حولها من اجنحة الخيال الناكرة لوجودها تارة ، والمثبنة لوجودها اخرى . وقد تمثلت في الرجل خصائص عصره التي ورثها من اسلافه ، حيث ظهرت ملامحها في قصيدتيه الشهيرتين (الالياذة) و (الاوديسة) تلك المعجزة التي ابتدعتها الهومرية فطبعت الفكر الانساني بطابعها التميز العميق حتى عصر الناس هذا . وعلى الرغم من ذبوع صيت الملحميين فان هومر لم يدونها تدوينا كتابيالا انه لم يكن يهتم بالتدوين الا على انه وسيلة للتفاهم فحسب . ولم تكتمل الملحمتان في تاريخ واحد معين ، ولكننا نلمس بوضوح ما بينهما من مميزات مشتركة من ناحية النحو والبلاغة والعروض . على ان الفرق بينهما كبير في الموضوع والطابع كما اشرنا في اصل البحث . واول طبعة للنص اليوناني للملحميين معا قام به ديميتريوس خلقوندليس عام (١٤٨٨ - ١٤٨٩ م) منبعا تقسيمها القديم الى اربع وعشرين انشودة مرتبة على عدد حروف الهجاء . وضمت في ستة كتب في كل كتاب اربعة اناشيد .

واول ترجمة للالياذة الى اللغة العربية قام بها الاستاذ سليمان البستاني ، ونشرت عام ١٩٠٤ م في القاهرة . ومن الترجمات الادبية المتأخرة للملحميين معا هي ترجمة الاستاذ دريني خنبة تحت عنوان (قصة طروادة) و (الاوديسة) وطبعها عام (١٩٤٤ - ١٩٤٥) في القاهرة ايضا - ويفلب على الترجمة الاخيرة روح التصرف والصنعة الادبية .

انظر :

Finley, J. H. *Four stages of Greek Thought*, Stanford, Calif., Stanford University Press, 1966, Chap. I.

Jebb, R. C. *Homer, An Introduction to the Iliad and Odyssey*, Glasgow, 1898, P. 20.

Zeller, E., *Outlines of the History of Greek Philosophy*, transl. by R. Palmer, London, Routledge and Kegan Paul, 13th. edition, 1955, p. 24 ff.

Burnet, J. *Early Greek Philosophy*, London, Adam and Chales Black, Fourth ed. 1963, p. 4 ff.

Kirk, G. S., and Raven, J. E. *The Presocratic Philosophers*, Cambridge, St. edition, 1957, pp. 8-16.

انظر ايضا :

جورج سارتون - تاريخ العلم (الترجمة العربية) - القاهرة ، مؤسسة فرانكلين ، الطبعة الاولى ، ١٩٥٧
٢٩١/١ - ٢٩٦

ول ديورانت - قصة الحضارة (الترجمة العربية) - القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤٩ ، ٦/٦ ف ٨٦/٣ - ١٠٠

محمد صقر خفاجه - النقد الادبي عند اليونان - القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٢ - المقدمة .

حيث تعتبر قصائده أقدم نص للفكر اليوناني الاصيل ، اصطنعته حضارة العصر قاعدة متينة لانطلاقها . وقد تمثلت تلك القصائد بملحميتين عظيمتين هما الاياذة والاوديسة وكانت الاولى منهما حديث حرب ممتع وعميق ، تصف لنا وقائع طروادة العسكرية (وهى احدى مقاطعات آسيا الصغرى) التى ترجع حدودها الى القرن العاشر او التاسع قبل الميلاد . واما الثانية فتعود الى اواخر القرن التاسع فى اقرب الاحتمال ، وتغلب عليها روح المسألة وتمتاز بطابع الهدوء والوحدة الفنية ، وهى الاولى من نوعها فى عالم الادب . (٤)

يتحدث هومر - بادىء ذى بدء - عن الانسان والطبيعة والالهة حديثا فى جوانبه كثير من الطرافة والتحدى . فانثقاده للالهة مثلا يشكل لنا صورة واضحة عن حرية الفرد فى الاصحاح عن رأيه . وحديثه عن آدمية هذه الالهة وانها لا تختلف عن بنى البشر الا بامتلاكها لهذا السائل الازرق الذى يجرى فى عروقها فيمنحها الخلود والازل - يعطينا هذا الموقف صورة للسيطرة على الخوف واضعاف روح المسألة فى الانسان . فالالهة الاولمبية (٥) هنا تحب وتبغض ، تفازل وتمسق ، تمنح وتقبض حسب هواها ، ولكنها لا تمتلك سلطة عريضة على الانسان ، بل الانسان رهين (ضرورته) و (قدره) . يخضع لهذه الضرورة والقدر حتى (زيوس) كبير الالهة . . فالطبيعة الهومرية اذن حية مريدة قادرة متخصصة لادخل للالهة بوجودها وبقائها . وستترسم ظلال هذا الموقف على آراء الفلاسفة الطبيعيين الاوائل ، وتصبح مهمازالكثير من انعطافاتهم نحو العقل واستقراء قوانين الكون .

وفوق هذا وذاك كانت قصائد هومر سبيلا للاستظهار يتعلم اليوناني بوساطتها اللغة والادب ، ويتمتع بأساطيرها ، وما تروى له من حكايات الحرب ، وما تقصه عليه من قصص هيلانة وأغاممنون ، فتقف به على اعتاب حضارته القديمة موقفا تهتز له عواطفه هزة الخشية والرهبة والاعجاب . فهى حقا كما يقول المفكر رسل «تعتبر عملا فنيا كاملا للايونيين ظهر تأثيره اباّن القرن السادس على أحدث تقدير ، وفي هذا القرن ذاته بدأت حركة اليونان فى العلم والفلسفة والرياضيات » (٦)

ولم تقتصر هذه المرحلة من البواكير الادبية الاولى على هومر فحسب ، بل برز فى نهاية القرن الثامن قبل الميلاد شاعر جديد آخر هو هزيبود (٧) من سواحل آسيا الصغرى أيضا ، امتازت اشعاره بالروح التعليمية الحادة التى تبحث دائما عن الاشياء الحقيقية فى الكون . وله قصيدتان تنسبان اليه تسمى الاولى (الاعمال والايام) وتضم حوالي (٨٣٨) بيتا من الشعر وتنقسم الى اربعة

٤ - انظر : جورج سارتون ، سابقا ، ٢٩٥/١ . انتهى هومر الاوديسة بالعبادة التالية : « ثم دخل الناس فى السلم كافة » .

٥ - المراد (بالالهة الاولمبية) تلك الالهة الارضية التى تسكن الاولمب اليوناني وتتخذها مقرا لاقامتها .

٦ - قارن : رسل ، سابقا ، ٣٧/١

٧ - من الشعراء المتجولين ، اشتهن الزراعة كآبيه ثم نركها وخلص للشعر ورتبه ، منمثلا اياه بانشاد والوعظ والترتيل .

أول نشرة لقصيدة (الاعمال والايام) قام بها بونس اكيوروسيوس فى ميلانو عام (١٤٧٨ او ١٤٨١) وأول شرح لقصيدة (اصل الالهة) كان لزينون الرواقي ثم شرحا آخر لزيندوتس فى العام الثالث قبل الميلاد .

انظر :

Burnet, J. *Greek Philosophy*, London, Macmillan, 13th. Edition, 1968, pp. 22, 27.

اقسام : الاول منها يختص بالوعظ والارشاد موجه الى أخيه الاصغر المدعو برسيس ، والثاني منها حديث عن الزراعة والملاحة وقواعدهما ، والثالث ينحو نحو المبادئ الاخلاقية والدينية وتأثيراتها على الناس ، واما الرابع فهو تقويم يعتمد في تقسيم الايام الى سعيدة ومشؤمة ، وهو موقف يحكى لنا طبيعة العصر الذي عبر عنه هزيود بالتطير والحزن .

واما القصيدة الثانية فتسمى (أصل الالهة أو انسابها) وتبلغ أبياتها حدود (١٠٢٢) بيتا ، وهي محاولة فريدة للكلام على نشأة الكون والالهة وتثبيت للعنصرية في مسارها الطبيعي بحيث يؤدي به الى الاعتقاد بان العالم (تخلق) عن الالهة الاولمبية وليس مخلوقا من قبلها . وعلى الرغم من أن الالهة لا تخضع لمفهوم المكان والزمان ، فهي التي دفعت الانسان الى البحث عن حقائق الاشياء ومفاهيمها . يقول هزيود : « ان بنات زيوس العظيم قطعن عودا راعطينه لي ، غصنا متينا من الزيتون ، غصنا عجيبا ، ثم نفثن في صوتا قدسيا لا شيد بالاشياء التي ستأتي وبالاشياء التي مضت في سالف الزمان » (٨)

وانتهت حصيلة الانسان اليوناني من هذا الادب في القرن السادس قبل الميلاد الى نمو طبيعة الاتجاه الانساني نحو الحرية والاصحار عنها ، ومن ثمة ظهرت هذه المعالم في فلسفته التي اشادها على قواعد علمية وروحية معا ، كانت وما زالت مشار كثير من الاعجاب والتقدير .

٤ - واما الصورة الثانية التي تنازعت هذا الفكر فهي في نسيجها الباطني صوفية عرفانية ، كان لها اثرها البالغ العميق في نفوس بعض الفلاسفة اليونانيين . ولم نعرف عنها تاريخا معيناً سوى انها نحل تنهض على الاساطير ، وامتاز بعضها بالتحديث عن الكون والخلق والانسان ومشكلة الزمان ومسألة القضاء والقدر . وان أهم هذه المذاهب هي الديانة الديونيسية او الباخية (نسبة الى باخوس اله الخمر) . وديونيسوس اله من آلهة تراقيا في العصور الخوالي . ثم تطور المذهب في اعقاب السنين على يد (اورفيوس) من جزيرة كريت - بعد أن انتقلت الديانة الى بلاد اليونان - وهناك من يشك بطبيعة اورفيوس الالهية شكاً يبلغ حد منحه الصفة الادبية . ومهما كان فهو مؤسس (للأورفية) - وهو لقب أطلق اصطلاحاً على حواريه واصحابه من بعده .

وتمثلت في النحلة الجديدة وحدة الالهة والكون ، دافعة بعيداً عنها فكرة التخصص والانفصال التي ظهرت في الهومرية . واقامت هذه الوحدة على نظام عادل يترتب صاعداً حتى يبلغ حال الاتحاد مع الله ، بدوق ووجد صوفيين عميقين ، يؤديان الى تناسق اذلي دائم بين جميع الكائنات الحية على السواء ، وقد صورت الأورفية هذا الموقف بفكرة التناسخ بين الارواح ، بتبادل عجيب مدهش لا يتصوره العقل ، مع تشبث واضح للنفس وخلودها بعد الموت ، باعتبار أن الكون المحسوس ماهو الا سجن كبير وعقوبة مفروضة ومفروضة : مفروضة لانها عقاب على الخطيئة التي اقترفتها النفس في عالمها السماوي الرفيع ، ومفروضة لان هذه النفس تحاول جاهدة بكل وسائل التقشف والزهد والولاء ان ترتفع ثانية الى عالمها الذي صدرت عنه .

وموقف الأورفية هذا قد لا يتصادى والنظرة اليونانية الاصيلة للحياة والتي تتضمن القول بان

الانسان الواقعي هو الانسان الذي لا يقوم الفصل اساسا بين عقله وطبيعته ، بل هو مبدأ للحياة الحية لا ينضب ولا يفيض . او بعبارة اخرى اننا لا نميز فيه بين الموضوع والذات تمييزا تنائيا . ومهما يكن فقد ساعدت الاورفيه الى حد كبير على اذكاء روح التعاطف الديني مع العقل ، فظهرت في الفكر اليوناني اطر جديدة احتذاها فيثاغورس وصاغها على احسن مثال افلاطون الكبير . (٩)

وعند البحث عن الاصول الداخلية لموقف الانسان اليوناني نحو الكون ، نجد تلك الاصول وكأنها ترجع الى ينبوع ثلاثة اولهما الدين وتانيهما الاخلاق وتالثهما السياسة . وكان للعاملين الاولين خطرهما الكبير في تكوين ذلك الموقف . فالنزعان اللتان اشرت اليهما سابقا ساعدتا كثيرا على تنميته ، ومهدتا لظهور اتجاهين مختلفين (علمي) و (صوفي) سيظبعان الفكر اليوناني عدة قرون .

٥ - ومما يلحظه الباحث في دراسته لموقف الانسان نحو الكون قبل سقراط (وهو المقصود بقولنا العصر اليوناني الاول) ندرة المصادر وشحها (١٠) . ذلك لان الشذرات التي انتهت اليها لم تكن مسنوفة للاستدلال على مواقف اصحابها استدلالا يقني الباحث من رأى مبتسر يتخذها ، او حكم متعسف يصدر عنه .

وعلى الرغم من هذا النزر القليل من اقاويلهم المنسوبة اليهم ، فان الفلاسفة قبل سقراط اوضحوا مشكلات عدة كانت تشغل الفكر الانساني مئتين من السنين لم نجد لها حلا علميا الا على ابدى اولئك النفر من الطبيعيين الذين ربطوا بين المعرفة النظرية للعالم وبين تلك المشكلات ربطا عمليا فادمجوا الفلسفة بالعلم ، ولم يعد هناك من تبسّع تقصر عليه الفلسفة ، بل تستمد معيها من كل علوم الحياة على اختلاف ضروبها والوانها . وتصوروا الاشياء حية قادرة مريدة تنبض بالحركة ظاهرا وباطنا ، لاستحدث ولا تفنى ، تجمعها الواحدة ، وفرقتها الكثرة ، خاصعة لعوامل التغير والضرورة في الطبيعة . ومن هنا يمكن القول ان الانسان اليوناني الاول انصب اهتمامه باداء الامر على البحث في طبيعة الكون ونظامه دون سائر المشكلات الانسانية الاخرى . ولم يقتصر

٩ - يقول هنري برجسون (انظر : منبعها الاخلاق والدين - الترجمة العربية ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الاولى - ١٩٤٥ ، ص ١٩٩) : « نحن نرى في الواقع ان الحماسة الديونيسية قد استمرت بالاورفية ، وان الاورفية بالفيثاغورية ، والى هذه ربما يرجع الوحي الاول للافلاطونية ، فنحن في اى جو من السر - بالمعنى الاورق للكلمة - كانت تنموج الاساطير الافلاطونية ، وكيف انعمت الافلاطونية في حنان خفي الى نظرية الاعداد الفيثاغورية . وهكذا نرى ان قد كان البدء تشريه بالاورفية ، ثم كانت النهاية ان انشق الجدل عن التصوف . ومن هنا نستطيع ان نستخلص ان ثمة قوة فوق العقل هي التي خلقت هذا التطور وانتهت به الى غايته ، الى ما وراء العقل . »

١٠ - ان اقدم نص تاريخي لهذه الشذرات هو ارسطوطاليس ومن ثمة تلميذه ثاوفرا سطوس حيث سجل الاخير اتجاهات الفلاسفة قبل سقراط في كتاب اسماء (آراء الطبيعيين) نحا فيه نحو مشاقبا ، ولم يصل اليها الا على شكل شذرات ايضا . وعلى الرغم من اهتمام ارسطوطاليس بجانب نقد آراء الطبيعيين وموقفهم نحو الكون فان ما يذكره عنهم اقرب الى روح الموضوعية من بعض المصادر الافلاطونية المعاصرة . وقد ينتفع ايضا في هذا السبيل بكتاب فلوطرخس (٤٦ - ١٢٠ م) المسمى (في الآراء الطبيعية التي ترضى بها الفلاسفة) - نشر في القاهرة عام ١٩٥٤ ضمن مجموعة (ارسطوطاليس في النفس) والنص اليوناني للكاتب برجه الى العربية قسطا بن لوقا (٢٠ - ٣٠ هـ) وقام بتحقيقه الدكتور عبدالرحمن بدوى . واول ناشر له بلفنته الام هو ديلز في مجموعة (الاقوال اليونانية) عام ١٨٧٩ . واهمية الكتاب تنأتى من الناحية التاريخية بما يتصادى به مع آراء المتقدمين فحسب .

عمله على النظر في الطبيعة ومحتواها فحسب . بل تدارس ايضا ظواهرها المتعددة وحاول تفسيرها بما لديه من معارف وحكايات وتأمّل وخيال ، وانتهى به المطاف الى اعتماد قانون من الحتمية يساوى قانونه في الاحادية سواء بسواء .

والسبيل الرئيسى لموقف الانسان اليوناني نحو الكون يمكن حصره في الحدود التالية :

- (ا) - الاتجاه الواحدى الذى نبني وحدة مادته الكون ، مفسرا بسبيلها وجود الاشياء وتباينها .
- (ب) - الاتجاه الرياضى الصوفى واعتماده العدد اصلا في فلسفة تعتمد الحياة كلا وجزءا .
- (ج) - الاتجاه الوجودى الذى حاول الاخذ بوحدة كونية معينة اشاد عليها بناء العالم ونظامه .
- (د) - الاتجاه نحو النوفيق أو الجمع بين التعدد والكثرة وبين التغير والثبات .
- (هـ) - الاتجاه الالى أو عالم الدرّة وفلسفتها ، وهو انعطاف علمى بحث ارتسمت معالمه في آراء المدرّين وانصارهم .

نلك هي اهم منازع الفكر اليونانى الاول . سنحاول تقديمها غير ملترمين الترتيب الزمنى لظهورها الا عند الضرورة ، مؤثرين الطريقة الجدلية التى تكتشف عن تطور هذه الافكار وتقدمها كاتجاهات فلسفية ، مستبعدين قدر الامكان ذكر الاسماء الا ما برد منها في التعليقات المدونة في آخر البحث ، آخذين بنظر الاعتبار طبيعة المذهب في اطاره الفلسفى فحسب .



٦ - ففي الاتجاه الواحدى يتميز ولاول مرة حط علمى في تفسير الكون واصالته يجمع في تساؤله ونظراته بين العلم والفلسفة معا ، ويحاول جاهدا تحرير ذاته من سيطرة الميثالوجيا ، مكتفيا بملاحظة العقل وحكمه العام على الطبيعة الخارجية ، مؤكدا حيويتها ، وغير مميز بينها وبين القوة التى تحركها أو تغيرها . فبدأ الكون له وكأنه (حياة في كل شيء) Animism - لا يجمع جامع سوى وحدته في الاصل ، مع اختلاف في اختيار عنصر الوحدة التى يريد . فقادته نظراته الاولى - وبشكل واع - الى الاسعانة بالاراء التى سبقته في فلسفة الكون ، فاعتمد فكرة الاصل الواحد للوجود - وبدأ التفتيش عنها فاختر (الماء) ركنا اوليا لهذا الكون (١١) وصدر باختياره ذلك عن

١١ - اول من اعتمد هذه النظرة هو طاليس الملى (٦٢٤ - ٥٤٦ ق.م) نسبة الى ملطية وهي ميناء معروف في ايونيا يقع شرق بحر ايجيه اى في وسط الساحل الغربى لاسيا الصغرى اشتهر بالتجارة وكان همزة الوصل بين ايونيا ومصر وفينيقيا والبحر الاسود . . وطاليس من الحكماء السبعة الذين يذكورهم افلاطون في محاوره بروتاغوراس (انظر :

Plato, Socratic Discours, transl. by A. D. Lindsay, Everyman's Library, 457, London, 1947, P. 274 (343).

ويميل المؤرخ اليوناني هيرودوس (حوالى ٤٨٤ - ٤٢٤ ق.م) الى اعتباره فينيقيا . ومهما يكن ، فقد عرف عن طاليس ميله نحو العلم والسياسة والفلك والرياضية فهو اول من نادى بفكرة الاتحاد بين الايونيين لصد خطر الفرس المحيق بهم . ويحكى عنه انه اول منكر لمعرفة ارتفاع الجسم القائم من قياس ظله . ولعله استقى معظم اصوله الرياضية من مصر وبابل . وينسب اليه ايضا الانبساء بكسوف الشمس الكلى الذى حدث في ٢٨ مايس مايو عام ٥٨٥ قبل الميلاد ، وهو انباء استظهره كما نعتقد ولسم يكن مبتكرا له ، لان نظراته نحو شكل الارض وكانها قرص طاف على الماء لا يساعد على تبني هذا الامر من الناحية العلمية !

تأمل وحدس وفرض علمي اخضعه لادراك الحس ، غير ملتزم باساطير القدماء التي تنادت لذات الفكرة ولكن بصورة ميثولوجية متباينة . ولسنا نعلم السبب الحقيقي الذي دفع الانسان اليوناني الى انتقاء الماء دون غيره من العناصر الاخرى . فلعل لقصة الطوفان تأثيرها النفسي عليه حيث لعبت دورها الكبير في تفكيره ، فعادت الحياة على الارض وكأنها نمت عن الماء من جديد ، أو ان الوضع الجغرافي لتلك البلاد وحاجته الى مد البحر وجزره ساعد ايضا في تنمية فكرة الاهتمام بالماء . ويذهب ارسطو طاليس (١٢) الى تبرير الرأي بسبيل حدسي مدعي ان النبات والحيوان كلاهما يفتديان بالرطوبة ومبدأ الرطوبة الماء ، فما منه يفتدى الشيء فهو يتكون عنه بالضرورة ..

ومهما كان فتنظرة الانسان يومذاك الى طبيعة الكون الواحدية هي التي تقودنا الى تحديد أهمية موقفة وخطورته، بينا لاجدة للعنصر الذي اختار. يضاف الى هذا تلك الفكرة التي غلبها على عصره مدعي بان العالم ملئ بالقوى والطاقات . وهي نزعة هومرية قديمة انارت نحو من الاعتقاد بان الانسان اليوناني وضع روحا شاملة في كل جزء من أجزاء الكون . أو بالاحرى وحدة وجود عامة لا تستند في واقعها الى عامل فرد له صفة الكيان الخاص ، لانه لم يفرق في الحقيقة بين الروح بمعناها الادراكي وبين (الشبح) الذي أشار اليه هومر في قصائده .

٧ - ولم يكتف الانسان بنظرنه تلك بل طورها ، فأيد الوحدة ورفض الماء أصلا للكون واختار بدلا عنه (الأبيرون) بمعنى الامر اللامتناهي اللامحدود واعتبره أصلا ، محتسبا اياه انه يتعلق بكيف المادة وكما معا ، دون أن يدرك التناقض الناتج عن الخلط بينهما ، وكان ذلك حرصا منه على الوحدة الطبيعية التي يريد .

والأبيرون - في ظاهرة الكون العام - مزيج من الاضداد كالحار والبارد ، واليابس والرطب ، ويمتاز بالسرمدية وعنه تكون الاشياء فترتد الى العنصر الذي منه نشأت ، كما جرى بذلك القضاء والقدر ، لانها تعوض بعضها بعضا ويرضى بعضها بعضا (١٣) . فأشياء الكون تنشأ عن هذا (اللامحدود) بعملية الانفصال . والانفصال هنا لا يفسر تفسيراً ديناميكياً بنية تبرير عمليته القاصدة . وعند ذلك نعتبر (الأبيرون) مبدأ أوليا فكانه هو نفسه سبب الانفصال المباشر الذي أدى الى نشأة الكون . فبحركة المادة تنفصل الاشياء بعضها عن بعض وتجتمع بعضها الى بعض ، والأبيرون في بدء الامر كل متجانس لا يوصف بكم نهائي ولا بكيف محدد . ثم تظهر لنا صور الانفصال وأولها البارد أو الرطب وهو في المركز ، ثم تغلفه دائرة الهواء ، فدائرة اللهب ثم النار . وبفضل هذه الحركة (١٤) الانفصالية الخالدة تحدث العوالم والكائنات .. ويبدو لنا الكون في هذا

١٢ - انظر : Aristotle, *Metaphysics*, Oxford transl., ed. by D. Ross, Oxford Press, Vol. VIII, 1908, B.I.3., 983b.

١٣ - أول من نادى بفكرة الأبيرون هو انكسيمندريس (٦١٠ - ٥٤٥ ق.م) كان معاصرا لطاليس ، وتنسب اليه أول خريطة للعالم جمل فيها اليونان في الوسط .

انظر : Burnet, op, cit., p. 152 ff.

١٤ - هناك اختلاف في نوع هذه الحركة وشكلها ، ويميل الاستاذ زيلر الى انها تشبه حركة الدوامة .

انظر : Zeller, op. cit. p. 43 ff.

الموقف وكأنه نتيجة لصراع بين الاضداد على ان سود هذا الصراع فكره العدالة متمثلة في الموازن الطبيعي بين الاشياء ، أو بمعنى آخر عدم تجاوز النسب التي يترتب عليها وجود الكائن من حيث أن الوجود بحد ذاته خطيئة طبيعية ، والتكفير عنه هو فناء عوالم ومجىء أخرى الى غير نهاية . ويظهر الاتجاه في المذهب وكأنه انعكاس لقصة الخطيئة من جهة ، وارتسام لصور هومر وهزيود نحو الكون من جهة أخرى .

ومن طريف ما تبناه هذا المذهب اعتقاده بأن الكائنات الحية نشأت عن الرطوبة من حيث انها في أصولها الاولى كانت محوطة بالصدف والقشور كالاسماك سواء بسواء ، وعندما حلت على اليابسة رمت بقشورها تلك ثم تكيفت حسب محيطها الجديد ، وكان منها الانسان القائم ، أو بالأحرى كان الانسان تطورا عضوا لتلك النظرية . وما أشبه هذا الموقف - على سداجته - بنزعات أصحاب نظريات النسوء والارتقاء كدارون ولا بلاس وغيرهما ، خاصة ما يتعلق منه بنظرية ايجاد العالم Cosmogony وبنظرية تولد الاعضاء الحنة Zoogony .

٨ - تم عاود الانسان اليوناني موقفه من جديد نحو الوحدة ، فرفض الماء والايرون معا ، وادعى ان المبدأ المتعين الرئيسي هو (الهواء) - باعتبار « ان الجوهر الاول واحد لا نهائي ، محدد الكيف ، منه نشأت الاشياء الموجودة والتي كانت والتي ستكون ، ومنه أيضا نشأت الالهة وما هو الهى وتفرعت باقي الاشياء » . (١٥) فالهواء المعنى هنا هو اصل الاشياء ، يحمل ذات التعادل في الاضداد الذي فرضوه في الايرون سابقا ، والفرق بينهما ان الاول لا متعين بينا الثاني سمى بالتعيين هواء . وهذا الهواء يتخذ بحركته الصور المختلفة للتكاتف والتخلخل فيصبح مرثيا : ففى تمدده يصبح نارا ، وعند تلبده يصبح سحابا ، وعند تكاتفه الشديد يستحيل ماء ، واذا تكاتف الماء أصبح أرضا ، واذا زاد تكاتفه أصبح صخرا . فالهواء هنا صورة للعلاقة القائمة بين الكثافة والحرارة « يختلف من حيث رفته وكثافته باختلاف طبيعة الاشياء » . (١٦) وهذا الاتجاه الجديد يعبر في حقيقته عن خطوة عملية لها تسانها وخطورتها في تطور العقل اليوناني نحو الالية حيث ترد الاختلافات الكيفية في الاشياء الى اختلافات كمية . وفي اعتقادي انه يفوق الرايين السابقين عليه .

واذا فيست فكرة التكوين التي اعتمدت الهواء أصلا من بُعد آخر ظهر لنا أن نسبة الكثافة الى السرعة تسير سيرا عكسيا ، بمعنى أن الاشياء كلما زادت كثافتها كلما قلت سرعتها والعكس بالعكس . واما الهواء في حد ذاته فهو يمثل الحد المطلق بين طرفي التخلخل والتكاتف ، وكذلك الامر بالنسبة للحرارة نسير سيرا عكسيا مطردا . ولذلك اعتبر اليونان النار أشد العناصر حرارة لرقة كثافتها .

وهكذا يبدو أن الاتجاه الجديد اكثر تقدمية من سابقه ، وأعنى بذلك انه ادرك فكرة التحول

١٥ - يعتبر انكسيمانس (٥٨٥ - ٥٢٨ ق.م) اول واضع لفكرة الهواء اصلا للكون .

انظر بخصوص النص :

Nahm, M. Selections from Early Greek Philosophy, New York, Appleton-Century, 1947, p. 62

Nahm, op. cit. p. 66.

١٦ - انظر :

أو التغير مفسرا اياها بالكثافة والتخلخل ، ومحدد الجوهرها الاصيل بعنصر (الهواء) وسيكون لهذا الموقف اثره في المتأخرين من بعده .

★ ★ ★

٩ - وفي أواسط القرن السادس قبل الميلاد يبدأ تيار عتيد في الفكر اليوناني يتسم بمعالم صوفية ورياضية ، ويمتاز بانسجام تام في المذهب ، مع تحرر في الاتجاهات الفردية عن علاقاتها الخارجية ، مصحوبا بمحاولة ربط كيانه بعناصر الفرد الباطنية العميقة ، حيث عاد (الانسجام) يمثل رابطة القربى بين الاشياء الحية كافة . وقد استمد المذهب كل مقوماته الاصلية من الديانة الاورفية التي اشرنا اليها سابقا ، سالكا فيها نهجا عقليا وأخلاقيا معا (١٧) ، معتمدا على تأملية رفيعة تنهض على طبيعة الفكر الرياضي باعتباره السبيل الوحيد للمعرفة الحدسية العليا ، يرتفع على المحسوس المتغير ويوصل الانسان الى اليقين الثابت الذي لا يعلوه يقين . فهو المهيع الذي يقود الى مشارف المعرفة المتعالية فكرا وعملا . فكان المذهب يقوم أصلا على ان الفلسفة (طريقة في الحياة) اتانيتها العقيدة والمعرفة على السواء .

وارتسم الاتجاه لديه باديء الامر بالاستفسار عن الكون وأصالته الحقيقية أهو ماء أم هواء أم شيء آخر لا هذا ولا ذلك هو « اللامحدود » ؟ . ثم عاد عن تساؤله هذا كي يحدد الجواب « بالعدد الرياضي » فحسب « ولكن كيف تم له اختيار هذا الرأي ؟ . يبدو أنه نظر الى الوجود متمثلا بصورتين ذات وجه واحد : فالاشياء اما أن تكون اعدادا أو أنها تحاكي العدد (١٨) . وان هذه الاعداد لا تفارق الاشياء بل متحدة بها ، لذا فالكون كله توافق عدد ونفم ، وليس هناك فارق بين « المحاكاة » و « الذات » بالنسبة للفكرة القائمة .

ولكن هل الاشياء بصورها وموادها هي العدد المكون لجوهرها ؟ أم هي الصورة فحسب ؟ . . . يميل الاستاذ زيلر الى الرأي القائل بأن الاعداد في المذهب هي (صورة) و (مادة) معا للاشياء . والامر الذي يمكن التأكيد عليه هو أن هذا الموقف يشمل بشكل عام كل الوجود المادى والمعنوى على السواء . ولولا هذا الشمول كما أعتد لعادت النظرية صعبة التبرير والتدليل ، بله وضعيفة الفحوى . فليس من النصفة اذن أن يقتصر تفسيرنا النظرية على عالم الطبيعة فحسب . على الرغم من أنها استعانت في تطبيقاتها لفكرة العدد بعناصر حسية ومادية بسبب ما أدركت من الائتلاف بين

١٧ - يعد فيثاغورس واضع الصرح الاساس لهذا المذهب ، على ان التمييز بينه وبين حواريه أمر غير متيسر في الدراسات القائمة ، لان آراء المذهب اندمجت بعضها ببعض ، ومن ثمة صعب الفصل بينها ، بل اضميئت جميعها - عند النسبة - الى شخصية (المعلم) فيثاغورس .

والتاريخ ضنين في الحديث عن حياة مؤسس هذا الاتجاه ضنة نحسبها متعمدة احيانا ومهما كان فقد انشا فيثاغورس مدرسة في مدينة كروتون في جنوب ايطاليا كانت نبراسا نار الطريق امام الكثيرين من فلاسفة تلك الحقبة ، بما امتازت به من نظام تربوى دقيق ومنهج عقلى رفيع ، التزمت خلاله بتطبيقات عملية رتيبة . ومالت المدرسة الى الايمان بتناسخ الارواح اى معاودتها بعد الموت الى بسن آخر سواء اكان انسانا ام حيوانا - والنظرية ولا شك ترتبط بوشائج القربى مع فكرة الجذب الروحى التي ظهرت في النحل الاورفية المنادية بفكرة التطهير . وكذلك ادخلت المدرسة في طقوسها الموسيقى كعنصر اساسي في تطبيقاتها العقيدة لانسجام الموسيقى مع فكرة العدد الرياضي .

Arist. Met. op. cit. A. 5, 985b 28 :

١٨ - قارن :

الأشياء والأعداد . وعند النظر الى المذهب بتشكل أدق تبدو فكرة الأثلاف هذه وكأنها المصدر الاصيل لهذا التطبيق في أصول النظرية ، أو بمعنى آخر هناك صفة مشتركة بين الأعداد والمحسوسات . بحيث لم يجد المذهب غير العدد « مثالا » يصدق عليه الانسجام صدقا حقيقيا . فارتسمت ظلال النظرية من الناحية الطبيعية بفكرة (البراس) أى الحد أو المحدود التى فسرت الأشياء ونسأتها بموجبها . بحيث ان الأطراف المحدودة تكون اكثر ظهورا في الوجود العيني واصدق حقيقة من الأشياء غير المحدودة ، لان صورة الشيء لا ندرك الا عن هذا السبيل .

والاصل في هذه الأعداد هي الوحدة لا الثنائية خاصة عند المتقدمين من أنصار المذهب . ومالوا أيضا الى الربط بين الشكل eidos من جهة وبين العدد من جهة أخرى ، فأعطوا للأعداد هبئات متماثلة : فالواحد نقطة ، والانبين خط ، والثلاثة مثلث ، والأربعة مربع . وأعدادهم - على الرغم من أنهم وحدوا بينها وبين الأشكال الهندسية - أعداد حسابية تعتبر أساسا للنظرية الخاصة بالأعداد في العصر الحديث . (١٩)

وكان للعدد (١٠) عشرة ، أو ما يسمى عندهم بـ Decat قدسية واضحة لديهم فهو مثلث العدد أربعة ، أى مجموع الأعداد الأولية (١ + ٢ + ٣ + ٤ = ١٠) . وتشير بعض المصادر الى أنهم كانوا يقسمون به باعتباره أنه النموذج العام للكون . ولعل هذه النظرة في قدسية هذا العدد تظهر مبرراتها عند ردها الى عناصر الكون الأربعة حيث تستأثر هذه الأركان بكل مقومات الوجود . وفي حال تغليب فكره (الوحده) على هذا الموقف يعود الامر - بعد ضم الأعداد بعضها الى بعض - أن العدد عشره ، مصدر كل جوهر حادث بل هو أصله كما يدعى المذهب بالذات ! ..

وأما العالم فقد تخيله انسان هذه المدرسة حادثا وليس قديما ، بمعنى أن هناك عله أوجدته ونسقته على الوجه التالي : السماء الأولى ، فالكواكب الخمسة ، ثم الشمس والقمر والأرض . ولكي يبلغ العدد الفلكي الى عشرة ادعى وجود أرض مقابلة . (٢٠) وكل هذه تدور حول نار مركزية هي (بيت زيوس) لانها كرية الشكل ، يبعد بعضها عن البعض الآخر مسافات منتظمة وتصدر عنها أنغام عذبة موسيقية تسحر الالباب وتتحرك حركة هادفة كما تتحرك عقارب الساعة سواء بسواء ! وإبنداء من تحت فلك القمر نخضع الحياة للكون والفساد ، وللتغير والاضمحلال ، ويقطن البشر الجهة العليا من العالم الأرضي . وغاية الحياة في هذه الدنيا هي التطهر من أدران المادة والارتقاء شيئا فشيئا نحو رحاب السماء . ولا يتم هذا في رأيهم الا بالخضوع لنظرية «تناسخ الأرواح» في المذهب ، وذلك بتعاقب متتابع منسجم ابدا .



١٠ - تم تبدأ تجربة جديدة أخرى لهذا الإنسان يجمع فيها بين طرفين مستقطبين ، يللم كل منهما نسيج نظريته بدقة وحذق ومهارة ، ويجمع لحتمها وسداها ، وينتهيان بها الى حيث يشاء لهما النظر الفلسفي : كون طبيعته التغير بالاستمرار ، وكون طبيعته الثبات باستمرار . ويبقى العقل وحامله هدفا لصراع الرأيين المتنازعين .

١٩ - انظر : جورج سارتون - سابقا ، ٤٢٨/١

Arist. Met. op. cit. I. 5ff.

٢٠ - قارن :

١١ - وينهض الموقف الاول من هذه التجربة على الفكرة التي تقول ان التغير عبارة عن « مجاهدة » (٢١) تمتاز بها سائر الاشياء من حيث انها في صيرورة مستمرة ، والثبات هو ثبات هذا التصير . ويتمثل التغير في المذهب بعنصر تشبيهي حسي هو النار ، لان الاشياء نحول كلها اليها والنار لكل الاشياء . ويظهر هذا بالنسبة الى النار الاصلية (وهي غير النار الحسية القائمة) على سبيلين : صاعد وهابط ، وباتجاهين مختلفين اولهما يبدأ من التراب ويرتفع الى النار ، وتانيهما يبدأ من النار وينزل الى التراب . وكلاهما يخضعان لنظام ثابت متعادل يؤدي الى التوازن والنوافق كي تتحقق الاشياء تحقفا فعليا في الوجود .

وليس من السهل حقا تصور النار التي ارادها الانسان اليوناني ، بل يصعب حتى ادراكها بالحس ، الا بسبيل التمثيل او المحاكاة لانها فاتقة عليه . فكان النار هنا هي الخصيم في نهاية الشوط وغاية الحياة (٢٢) لانها تعلق على جميع الاشياء وستحكم عليها وتدينها .

وترسم فكرة النار وتغيرها بصورة الائتلاف بين الاضداد . فهناك قبل الائتلاف صراع دائم بين الانبياء التي يتركب منها العالم . هذا الصراع يتمثل في ان هذه الاشياء تفتنى في النار لتعود حية في معنى الوجود العام ، وتتحرك نحو التراب فتدبل ذبولا شاملا ، فوجودها اذن هو في بقاء التعادل بين الحركتين المتعاكستين : الهابطة والصاعدة على السواء ، دون تغليب احدهما على الاخرى « ان الطريق الى فوق والى اسفل واحد . البدء والنهاية في محيط الدائرة واحد . . . ان الحرب غاية لكل شيء وان التنازع عدل ، وان جميع الاشياء تكون وتفسد بالتنازع . . . ان الواحد متألف من كل الاشياء ، وكل الاشياء صادر عن الواحد . . . ان الحياة والموت شيء واحد . . . » .

والانجاء في العبارات السابقة ينحو نحو الايمان بأن لكل قضية في هذا الكون نقيضها الخدين لها ولا تعرف الا بسبيله . ومن هنا وضع هذا الانسان جدلا صاعدا ونازلا يكون هو الطريق الى الادراك الجزئي لظواهر الحياة المتغيرة . ولكن خلف هذا الظاهر حقيقة أعمق أثيرا على الفكر الا وهي الوحدة والانسجام الذي ينتهي اليه هذا الصراع . فوحدة الاضداد هي الاصل وعنها يصدر هذا التغير في دورات متعاقبة سميت (بالسنة الكبرى) امد الدورة الواحدة ثمانية عشر ألف عام ، او ثمانمئة وعشرة آلاف - كما في بعض الروايات - حيث تأتي النار على الاشياء جميعها . والمبدأ الذي ينتهي اليه صراع الاضداد هو (اللوغوس) او (الكلمة) ، وهو المعيار الابدي الموجود وراء التغير الدائم للظواهر ، والمقياس والغاية لجميع الاشياء . فاللوغوس هنا مدمج بالعالم ولا تميز بين الطرفين بشكل واضح . فهو الله في حقيقته الابدية الثابتة ، يظهر بأشكال

٢١ - مثل هذا الرأي هرقلطس (حوالي ٥٤٤ - ٤٨٤ ق.م) من افسوس احدى المدن الايونية الشهيرة . كان استقراطي النزعة ، انحدر عن عائلة توارثت الكهانة العظمى . عرف بالفموض فكرا ، وبالانسأوم والطيرة طبعا ، لذا سمي بالفيلسوف البالي . فلسفته تدل على عمق نظر في الكون ، وتشير الى عناصر وحدته المنسجمة في الاصل .

٢٢ - يقول الفيلسوف البريطاني المعاصر رسل : ان الطاقة التي هي مجرد صفة تميز العمليات الفيزيائية ، يمكن ان نجتمع بخيالنا فنجعلها هي النار التي دعا اليها هذا المذهب . على ان نتصور انها الاحتراق نفسه لا ما يحترق ، فما يحترق فد اخفى من علم الطبيعة الحديث . كما انه ليس في وسع العلم ان يفند مذهب التغير الدائم الذي نادى به الانسان اليوناني القديم (انظر : رسل - تاريخ الفلسفة الغربية ، ١/٨٩)

الانسان وموقفه من الكون في العصر اليوناني الاول

مختلفة ، فهو نهار وليل ، سناء وصف ، حرب وسلم وفره وفله ، يتخذ أشكالا متباينة كالنار المعطرة تسمى باسم العطر الذي يفوح فيها .

بهذه الوحدة الوجودية الى عبر عنها الانسان اليوناني تارة باللوغوس ونارة بالعقل ونارة بالنار ، لم يعد ضروريا قيام موجد لهذا الكون « أن هذا الكون المنظم لم يخلقه اله ولا انسان ، ولكنه كان وهو لا يزال وسبظل الى الابدنارا لا تنطفئ فيها الحياة ، تسنمل بمقدار وتخبو بمقدار » وان غاية المعرفة الحققة هو الاتحاد أو الاتصال بين المدرك والاصل في نهاية شوط الحياة .

ونجد الاساره الى أنه ليس تمة تناقض نتج عن القول بالوحدة الوجودية من جهة ، والتزام نظرية التصير الدائم في الاتيياء من جهة أخرى ، لان الموقف ينهض في أساسه على تغير في الكيف مع اصل ثابت هو قانون التغير بالذات . وعلى هذا الاعبار فميثافيزيقا المذهب – كما يقول الفيلسوف رسل (٢٣) فيها قدر من الديناميكية يفتح أشد المحذنين ميلا الى الحركة .

١٢ – ويحدد الاتجاه الثاني من هذه التجربة بنظرية شاملة نحو الكون تظهر سماتها وكأنها بدء للميثافيزيقا وللنطق معا . (٢٤) حيث حاول الانسان اليوناني في هذا السبيل تأكيد فكرة الوجود تأكيدا ايجابيا يستحيل معها ان يحمل صفة السلب . مع ثبات في الكون لا يخضع خلاله لاية حركة أو تغير مهما كان . ثم أشاد معرفته الانسانية على سبيلين : أحدهما بحث عن اليقين وثانيهما بحث عن الظن أو الاحتمال . وربط الاول منهما بمدلول (اللغة) و (الفكر) معا محتسبا ان كلاهما يحملان دلالة الوجود لان اللاوجود عدم بحث فلا يصح قيامه . فالوجود اذن موجود ، وهو كلي ثابت ، ازلي لا يسبقه العدم اطلاقا ، ينفرد بنفسه ، متصل لا يتغير أبدا ، ولا يحدث عن شىء اسمه (اللاوجود) لان الاخير خال من التفكير . ويتميز هذا الوجود بأنه منجانس في جميع أطرافه ، كل شىء مملوء به ولا يحاح الى شىء ، مثله مثل كرة الكرة المستدبرة المساوية الابعاد عن المركز . وبهذا الاعتبار لا بدء له ولا نهاية لان الكرة اكمل الاشكال ولا تحمل صفة البداية أو النهاية . فهو اذن وجود مطلق غير متعدد ، لا ينضاف الى شىء ولا يضاف اليه شىء . ففي كلا الاضافتين تناقض يستتبع الثبات والوحدة معا . وأما سائر الاشيياء التي دون هذا الوجود فوهم وخيال ! . .

٢٣ – انظر كذلك رسل – سابقا ، ٨٢/١

٢٤ – اشهر فلاسفة هذا المذهب هما بارمنيدس (٥١٥ - ؟) وزينون الايلي (٤٩٠ - ٤٣٠) . كان الاول منهما من ايليا على الشاطئ الغربي من ايطاليا . أسهم في جانب الحياة الاجتماعية لبلاده وشارك في دراسات تيارات عصره الفكرية . ويعتبر اول فيلسوف حاول تثبيت علم ما بعد الطبيعة واصول المنطق في العقل . وهو من اوائل من استعمل الطريقة الرمزية في تحديد الرموز اليه ، واظهر ذلك في قصيدتين تسمى الاولى (طريق اليقين) وتسمى الثانية (طريق الظن) ، استعار فيهما الموقف استعارة مجازية ، فتمثل الحقائق المجردة بالصور الحسية .

واما الثاني فهو تلميذ للاول من ايليا ايضا . يحيط حياته غموض تاريخي نحسبه متعمدا لدى القدماء . أبرم حججه في نفي الكثرة والحركة نايبدا لموقف استناذه . وشارك بصورة فعالة في الحياة الاجتماعية لبلاده ، ومات مغمورا . وبقي كذلك حتى اكتشف فكره الرياضي في العصور الحديثة ، فقدر ابداعه خير تقدير خاصة في موقفه من حساب اللامتناهيات الذي يعتبر زينون رائده الاول .

انظر :

Benardete, J. A. *Infinity, An Essay in Metaphysics*, Oxford, University Press., 1964, pp. 1-27, 42, 99, 273-277 ff.

بمثل هذه الصورة العقلية الخالصة رسم هذا المذهب تجربته الانسانية العميقة ، تلك التجربة التي بدأت أول ما بدأت بفكرة الوحدة ، ولكن المسلك تباين اليها من حيث ان الانسان في هذه التجربة أكد « حدّها » و « وماهيتها » و « وطبيعتها » ، بينما ظلّ الآخرون دون هذا الموقف . فبدت لهم الحقيقة بشكل فردى متمين ، وهذا رفضه المذهب لمخالفته قواعد المنطق القائمة على مبدأ الذاتية وعدم الناقض . (٢٥) ويتأني الرأي الأخير من عدم تفرقة المذهب في الواقع بين المعنى الحملى للعبارة والمعنى الوجودى ، فأنهى به المطاف الى التأكيد على يقينية الوجود الثابت فحسب . فكأنه بهذا الرأي فرق بين شيئين : الوجود من جهة والطبيعة من جهة أخرى ، متنكراً لفكرة النكث في الاشياء لانه نفى وجود ما بينها من علفات . مضافاً الى ذلك انه أكد قدمية الكون وأزليته من حيث انه لو فرضنا حدونه ، فأما ان يكون محدداً لداته او بواسطة غيره ، وكلا الفرضين غير صحيح لان الاول منهما لا يرتبط بالزمان فلا يكون هناك دفع للاختيار في الوجود في لحظة دون أخرى بسبب خارج عن « الوجود » ذاته . وأما الثاني فمتى ما فرضنا « الوجود » فبستحيل معه عند ذلك وجود علي سابق عليه ، بل هو قائم حيث اربته وقدمينه ، وبهذا لا يخضع للكون والفساد .

وتجربة الانسان اليوناني هنا ستعرفنا بعمق انه مال الى الاخذ بأن الحقيقة الصادقة هي تلك التي تطابق الفكر « موضوعاً » و « وجوداً » ولا تختلف عنه أصلاً . وبمنهجية هذه جردنا لنا مبادئ عقلية لها أثرها الكبير في المنطق قديماً وحديثاً . وأقام فلسفة الكون على تلك المبادئ فطبع الفكر الانساني بطابعها قرون عديدة من الزمان . وعلى الرغم من تفاوت الاتجاهين الاول (فقره ١١) والثاني (فقره ١٢) فان كلاهما شك في الحس وبداهته وحاولا تصحيح الحكم عليه من خلال (الفكر) ، وسلك كل منهما مسلكاً خاصاً به ، فأنتهيا الى نتائج متباينة بعضها عن البعض الآخر ، ولكنها كانت ولا تزال قيد دراسة وعناية الباحثين والمفكرين .

١٣ - ولم يكتف الانسان اليوناني بتثبيت وجهة النظر الثانية (فقره ١٢) بل ابرى الى تقديم حجج نمان أنكر في اربع منا الكثرة آحاداً وقدرًا ، وأنكر في الاربعة الاخرى الحركة وتوابعها واعتبرها تعاقب سكونات ليس غير . وكان يهدف من وراء موقفه ذلك تأكيد فكرة بات الكون ، خاصة اذا قيست هذه الادلة بمنظار رياضي بحث لا بمقياس الحس والواقع . ومن الممكن ضم هذه الحجج بعضها الى بعض بحيث تعود في النهاية تحمل غايتين الاولى دفع فكرة قبول انقسام اللامحدود ، والثانية دفع فكرة الانقسام ذاتها ، سواء اكان ذلك الانقسام في المكان والزمان . وقد

٢٥ - مبدأ ذاته وعدم التناقض أساسان ضروريان في المنطق الصوري . كان الفصل في استعمالهما يعود لبارمنيدس . والمنطق لدى ارسطوطاليس ينهض على اصول المبدأ الثاني . ولا يزال للمبتدئين الرهما البالغ على المنطق الحديث .

انظر :

Alfred Tarski, *An Introduction to Logic*, New York, 1954, p. 54 ff.

Joseph, H., *An Introduction to Logic*, Oxford 1916, O. 13 ff.

اسمعلت هذه الادلة فباس الحلف *Reductis ad impossible* سبيلا في تحقيق ما تهدف اليه ،
أى أنها حاولت اثبات الاصل ببطلان النقيض . (٢٦)

★ ★ ★

١٤ - وفي مرحلة الصراع هذه بين التصير الطبيعي من جهة ، وبين فكرة الثبات والديمومة
من جهة أخرى ، يقف الانسان محاولا اعادة النظر في الموقفين فيخرج عنهما بحصيلة جديدة تحمل
فكرة « النوفيق » بين الثبات والتغير ، مع ميل واضح لديه نحو التعدد والكثرة في الاصول
والمبادئ (٢٧) ولاول مرة في تاريخ الفكر العلمى سجل الانسان اليونانى تمييزا حديا بين (المادة)
وبين (القوة) تم يضع العناصر الاربعة وضعا طبيعيا يدفع بسبيله جانبا فكرة (وحدة الكون)
التي تبناها الفلاسفة السابقون . تم يؤكد بأن هذه العناصر تتضمن جميع الكيفيات في العالم
الحسى ، ولكنها ليست هي موضوعا للتغير أو التحليل . بحيث أحدث موقفه هذا نظرية جديدة
في المادة بقيت معالمها على الفكر العلمى حتى بداية عصر الكيمياء الحديث .

وكانت نظرة المذهب نحو الكون نعتد أول الامر على ابتداعه لفكرة الاصول الاربعة *four*
elements الى حملت دلالة واضحة لما أصح عنه الانسان اليونانى سابقا (فقرة ٦) من صفات
معينة للاشياء . وقد حصرها المذهب بالنار والهواء والماء والتراب ، مؤكدا عدم امكان تحول
احداها الى الاخرى . والسبب في اختلاف الموجودات هو تباين في عدد نسب هذه الاصول
(الاركان) الاربعة . ومن هنا فالاختلاف (كمى) وليس (كيفيا) ، وبمعنى آخر هناك تصير مستمر
من ناحية كم العناصر ، بينما في الطرف الاخر ثبات مستمر بكيف العناصر . فجاز للانسان اذن ان
يجمع في مرحلته هذه بين التغير من جهة ، والديمومة من جهة أخرى كما اثرت سابقا .

٢٦ - قياس الخلف من اكثر القوانين المنطقية تأثيرا على الفكر القديم . يعرفه الشيخ الرئيس ابن سينا بأنه
القياس الذى تبين فيه المطلوب من جهة تكذيب نفسه ، فيكون هو بالحقيقة مركبا من قياس اقتراني ومن قياس
استثنائي (انظر كتاب النجاة - القاهرة ، نشرة الكردى ، الطبعة الثانية ، ١٩٣٨ ، ص ٥٥) .

ويمكن صياغة القياس حديثا على الشكل التالي :

إذا كان (P و C يلزم عنهما E)

فاذا افترضنا أن النتيجة كاذبة وان P صادقة ، ينتج من ذلك ان C كاذبة أيضا . ورسمه الرمزي كالآتي :

[(P ← C) ← (E ← C)]

فان : A. Tarski, op. cit. p. 159.

وكذلك :

Ross, D. Aristotle, London, Melhuen, 7th edition, 1956, p. 35.

٢٧ - تبنى هذا الموقف أمبادقليس (٤٩٥ - ٤٣٥ ق.م) من أهالي افرقنتيا من أعمال صقلية ، لعب دورا مهما في
الفلسفة الطبيعية . وحياته استوعبت كثيرا من الحكايات الشعبية المشكوك بصحتها . واكثر القصص عنه يستند الى
ديوجينيس (حوالي ٤١٢ - ٣٢٣ ق.م) ورواياته عن حياة أمبادقليس السياسية وطريقة موته .

وتميل بعض هذه الحكايات الى القول بأن الرجل بالغ في النظر الى نفسه حتى ادعى النبوة ثم الالهوية ! . واحتمى
بسلطانها ودعن الناس لاقاويله .

قدم افكاره الفلسفية بنسق شعري يشبه روى بارمنيدي السداسي ، وتمثلت افكاره بقصيدتين هما (في الطبيعة)
و (في التطهر) لم يصل منهما سوى (٣٥٠) بيتا من أصل (٥٠٠) .

وهذه الاصول غير مخلوقة بل ازليه ، فلاسفة يأتى من لا شيء ، ولا يفنى شيء الى لا شيء فلا مجال لكون أو فساد بالمصطلح الدقيق لهما . بل ننداخل هذه العناصر فتصبح الاشياء المختلفة في الازمنة المختلفة وتتتابه على الدوام ، واختلاف أشكالها الطبيعية سببه الاركان الاربعة أيضا . فالاجسام كلها تنقسم حتى نصل في نهاية الشوط الى الاصول الاولى . فهي اذن مطلقة ونهائية .

والايجاد الطبيعى بهذه عبارة عن عملية امتزاج وتبادل بين هذه العناصر بحيث يحافظ كل عنصر على صفاته مهما تكرر امتزاجه وتبادلته . بجرى ذلك على « الاشياء النية كانت والتي سوف تكون حتى الالهة نفسها » . ويبدو لنا أن النظرية تحتل فكرة الفساد المفايلة للكون على أن يفسر الاضمحلال بأنه انفصال في الاتحاد أو الاتصال ذاته . . فالاشياء اذن في تنقل دائم بين حالتها (الانصال) و (الانفصال) . فلا كون ولا فساد في الحقيقة ، لانه لا يظهر شيء الى الوجود مما ليس بوجود والعكس بالعكس .

وأما العناصر فتتكون من جزيئات صغيرة جدا بينها مسام صغيرة تتطاير ذراتها المتشابهة في العنصر الواحد لتنفذ في مسامات العنصر الأخر عند وجود التأثيرات المتصادية أو المبادلة تماما كحجر المغناطيس والحديد سواء بسواء . (٢٨) وان هذا التخلف أو الحركة نتيجة لقوتين جوهريتين متصارعتين هما (الغلبة) التي تعمل على فصل عناصر الكون بعضها عن بعض ، و (المحبة) التي تعيد العناصر الى اتصالها والفتها مرة أخرى .

والمحبة والغلبة لا يمكن اعتبارهما عنصرين يضافان الى العناصر الاربعة كما يتوهم البعض . (٢٩) بل هما علتان فاعلتان في الوجود فحسب وليس بقوى روحية أو معنوية ، بل هما والعناصر الاربعة يحملان دلالة (الاعتدال) أو التوازن الطبيعى : فالمحبة عدل وانصاف في الطول والعرض ، والغلبة (الكراهية) عدل بالنسبة لهما من ناحية الثقل . وفعلهما هذا (اعنى الانصال والانفصال) يمكن أن نحتمل أن الوجود حركة ديناميكية فاعلة أو بالأحرى أن فعلهما ديناميكيا . وتتلازم القوتان العنيتان مع العناصر تلازما تاما لان الاصول الاولى تتضمن كل الحقائق المادية . والموقف هنا يمثل خطوة بيّنة نحو التمييز بين العلة المادية والعلة الفاعلة . . والكون يخضع لتغلب احدى هاتين القوتين باستمرار ! . فهناك اذن صراع دائم يختلف فيه الامتزاج وتتباين النسب ، ويؤدى في النهاية الى ظهور الكائنات الحية وانواعها بنشوء وانقاء تخضع فيهما الاشياء القابلة للانفصال الى كونين وفسادين - فمثلا الحال الاولى تظهر فيها « رؤوس بدون رقاب ، وأذرع مفصولة عن الاكتاف ، وعيون مستقلة عن الجباه » وفي الحال الثانية تتحد هذه الاجزاء ، ويمتزج الخالد بالخالد بالضرورة ، فتضمم الاعضاء المنفصلة بعضها الى بعض كيفما اتفق فتظهر اشياء كثيرة « كائنات ندب وتزحف ، وثيرة لها وجه البشر ، وبشر لهم رؤوس كثيرة ، ومخلوقات امتزجت فيها طبيعة بعضها بالبعض الاخر فاستحالت الى مسوخ » !

Zeller, op. cit. p. 56.

٢٨ - انظر :

٢٩ - ذهب الى هذا الراى سبيلقيوس في شروحه على طبيعيات أرسطوطاليس .

Simp. Phys. 2. 25. (Deils)

انظر :

بيننا نجد أرسطوطاليس نفسه يذهب الى أن المحبة والغلبة هما مبدأ واحد لصورتين مختلفتين من حيث أن كل انفصال هو اتصال في حد ذاته . على أن الكراهية هي علة التجدد في الاتحاد دائما ، لأنها متى ما فعلت الانفصال ولدت محاولات جديدة لوحدات جديدة . . وهكذا . فكان عملها غاية توحيد غير مباشر .

Arist. Met. op. cit. 985 a 21-1000 a 24.

انظر :

والكون في أصله (محبة) خالصة ملنحمة في داخله . ولقد شاءت الصدفة (ولا ندرى كيف حدث ذلك) ان تتدخل الغلبة فتفعل الانفصال ، فكان أول عنصر انفصل بفعلها هو الهواء (والهواء هنا يعبر عن جوهر مادي يخلف عن الخلاء فظهرت الشمس والسماء والارض والبحر تم الكائنات الحية . ويمر الكون بمراحل أربع : الاولى سيادة المحبة سيادة تامة ، والثانية دور الصراع بين المحبة والعلبة ويكون النصر للغلبة ، والثالثة سيادة الغلبة وتحقيق الانفصال في العناصر ، والرابعة عود على بدء في الصراع بين القوتين وانتصار المحبة ونهقر الغلبة . وان عالمنا الحاضر يمر في بدء المرحلة الرابعة من الصراع ! . . .

ونحن نعتقد ان الغرض من استعمال فكرهاتين القوتين (المحبة والعلبة) في كونييات الانسان اليوناني هو لايضاح التوازن الديناميكي في عمليات الكون . ولا شك ان الباحث ليعجب للحدس الذي حققه الانسان في ايراده لنظرية الانصال والانفصال المتابعة زمانا Simultaneously وما يلحق هذه النظرية من عمليات طبيعية دقيقة العلم ! . . . وعلى الرغم من أنه ليس من السهل ان نتصور بأن الكون يدار بقوة واحدة من هذه القوى ، ولكن الطرافة في الموقف ان المذهب اعتبر المحبة والغلبة أسبابا للتغيرات في الظواهر الكونية خاصة في حركة المادة تحت تأثير الجذب والنفور . وبهذه الكيفية الخيالية افترض حقيقة العلل في العالم الطبيعي ووجد بينها وبين هذه القوى . ولا شك أن هذا الحدس له خطوره في الفيزياء الذرية التي لا يمكن ان سقط من حسابها فرضية جذب القوى المتعاكسة . مضافا الى ذلك فكرة تعاضد هذه القوى وجوديا في الجذب والسلب معا . ففي حقل الذرة نحن نعلم حقيقة هذه القوى في التحنات الكهربائية ، فالقوى المتشابهة بالنوع تتنافر ، بينما غير المتشابهة تتجاذب - وحتى في الفيزياء النووية ليس في الامكان الاستغناء عن فرضية دفع وجذب هذه القوى أيضا .

★ ★ ★

١٥ - وعندما حاول الانسان اليوناني التمييز بين العلة المادية والعلة الفاعلة ، محددا اياهما بقانون (المحبة والغلبة) الذي ملنا في تفسيره تفسيراً ديناميكياً بنحو من الاجتهاد في الرأي ، اقول ان هذا الموقف يدفعنا الى الاعتقاد بأن الانسان أخفق الى حد ما في ايضاح هذا الرأي ايضاحاً كافياً . وسيتم هذا الامر على أيدي جديدة أخرى (٢٠) اعتبرت الكون في جملته وأبعاضه جنساً واحداً باعتبار ما فرضته مقدماته من أن الأشياء كانت مختلطة جميعها وغير متناهية في العدد والصفر ، لذا لم يبد شيء للعيان منها لصغر حجمه . فكان الهواء والاثير يحلان في كل شيء لانهما اعظم الأشياء كما وحجما . (٢١)

وفكرة التكوين عبارة عن عملية امتزاج وانفصال عن « الخليط الازلي » الذي هو مجموعة (البذور) Seeds اللانهائية عدداً ، وليس لها أي شبه بالعناصر الأربعة لان في كل منها تركيباً

٢٠ - تمت هذه المحاولة على يد انكسافوراس (٥٠٠ - ٤٢٨ ق.م) من كلاًزومنيا شمال مدينة افسوس ، وقد عاصر السياسي المعروف بركليس ، وكان أول فيلسوف استوطن أثينا . مال نحو التأمل واثرت أفكاره في معاصريه . . . وانهم في آخر حياته بالهرطقة ، فهرب من أثينا ومات في آسيا الصغرى .

يتسبه الكل ، أو بمعنى آخر « في كل شيء جزء من كل شيء » . وان عملية الانفصال هذه لا نحصل عالما فحسب ، بل تشمل عوالم من حولنا لها أقمارها وشموسها ولها حررتها وزرعها وكل ما يمكن أن ينتفع به ! .

وأما عملية الامتزاج فتتم بين الرطب واليابس والحر والبارد والنور والظلمة ، وهي البذور اللانهائية . . . وعندما حدث الانفصال لم يكن في الامكان عقلا التعرف على مقدار الانسياء التي خضعت لهذه العملية التي صدرت بقوة وسرعة تفوق التصور والتصديق . ولهذا فنحن لا ندرك الكون الا بعد تراكم البذور بعضها على بعض . ومصطلح (البذور) الذي يرد في المذهب يصعب التوصل الى حقيقته من الناحية النظرية والعلمية . فهو أمر يبدو انه يتضمن المتضادات والجواهر الطبيعية معا وبشكل مصمم بحيث لا مجال للقول بوجود الخلاء في أنحائه . وان هذه المتضادات والجواهر الطبيعية هي العناصر الاولى للكون ، والاشياء تتوضح لنا بما هو غالب عليها من نسب هذه البذور اللانهائية . أو بمعنى آخر غلبة صفة الكم على صفة الكيف بحيث لا يمكن قيام التعاكس بينهما (انظر فقرة ٦) .

وبهذا التبريد أوصل الانسان اليوناني مذهب الكثرة الى نتيجته المنطقية ، حينما فرض ان المادة متحركة ومستمرة ، ولكنها في الوقت ذاته تحتوى على صفات متنوعة لجميع الاشياء على اختلافها . مبدءا الموجودات هو (المتشابه الأجزاء) وانه من المحال أن يكون شيء من لا شيء أو أن يتبدد شيء الى لا شيء ، كما ذكرنا سابقا ، فكأن هناك حفظا للمادة وتسربها ، مع سيل من الانقسام لا ينقطع ولا ينتهي تتصف به الاشياء . . . ومهما حاولنا ان نصل من وراء هذا الانقسام الى شيء متعين ، فاننا لن نصل الى جزء يخلو من الاجزاء الاخرى ، أى أننا لا نصل الى ما يمكن أن نعتبره ركنا اصيلا دون ان تكون فيه اجزاء من أشياء اخرى .

وللبذور في المذهب صفتان : التشابه من جهة ، والتباين من جهة اخرى ، فالاولى باعتبار ان جميعها تحمل صفات كالحار والبارد والجاف والرطب والحلو والمر الخ . . . والثانية باعتبار ان نسبة هذه الصفات تختلف في البذرة الواحدة اذا قورنت الى اخرى . فالاشياء تحدث على القاعدة التي أشرنا وهي « أن لا شيء يخرج من لا شيء » Nihil ex nihilo وان تحديد الكائن يعود الى غلبة الصفات عليه ، فمثلا اذا غلبنا صفتا الصلابة والبياض كان منهما العظم وهكذا . . . فالطبيعة اذن هي الامتزاج نفسه لا ما يمتزج .

ونتساءل هنا من الذى أوجد هذه الحركة الانفصالية في الكون بعد ان كانت الاشياء مختلطة بعضا ببعض بأشكال غير متميزة ؟ . . . فهل حرك الخليط نفسه بنفسه ؟ . . . هذا ما لا يمكن قبوله في المذهب . فلا بد اذن من علة خارجية يتأدى لها ذلك فتسبب الحركة الدائرية في الكون . . . وهذه العلة هي (العقل) او ما يسمى (بالنوس) Nous . بدأها أول الامر ثم تشعبت تدريجيا فانتجت الانفصال بين الكثيف والمتخلخل وبين البارد والحار ، والنور والظلمة ، والرطوبة والجفاف . وادى هذا الانفصال الى انتاج كتلتين كبيرتين اولاهما حوت اللطيف والحار والمضىء وسميت كتلة الاثير . وثانيتها تسودها الصفات المضادة ودعت كتلة الهواء . وموقع الكتلتين من تخطيط الكون الطبيعي ان الاثير في الخارج ، واما الهواء فيشغل المركز .

ومن مميزات هذا العقل أنه غير مختلط بمعنى آخر أنه يبدو وكأنه ليس ماديا ، له سلطان على الانشاء كافة ، فهو سبب حركتها الاولى . وله من الصفات الذاتية اللطف والدقة والرقّة . تشمل معرفته كل اشيء الكون ، تماما كما كانت عليه النار عند الانسان اليوناني سابقا (فقرة ١١) وان هذا العقل لا يلحفه التركيب لانه بسيط قائم بذاته « في كل شيء جزء من كل شيء ما عدا العقل » . وهو واحد بالنسبة لجميع الاشياء . ولكن هناك اختلافا سائما ما بين علم الحيوان وعلم النبات متأت من حيث التباين في بناء البنية الحية . فالانسان أكثر تعقلا من الحيوان ، لانه يمتلك نوعا خاصا من العقل ، بل لامتلاكه اليدين بحيث بنيته الحية تساعد على أن يتصرف بالعقل بشكل اكثر فعالية من النبات !

وعندما يعود العقل في المذهب وكأنه علة الموجودات ، فانه عينة على الابتداء ، واعني بذلك انه بعد اتيانه الحركة لكل دفعة واحدة يقف تأثيره على الكائنات بل ان تلك تتغير بشكل الى مستمر حسب قانون عام فرضه العقل مقدما ! . فالانسان هنا اصطفى العقل أولا وتمسك بهداه ، ثم لم يستقر حتى دفع به الى (النعطل) مكتفيا بما أنتجه من حركة اولية في الاشياء . وهذا ما يدفعنا الى اعتبار العقل أمرا طبيعيا ، او بالاحرى انه تحويل دقيق لفكرة الكثرة التي اصغر بها مذهب المحبة والغلبة (فقرة ١٤) . . مع التأكيد بان هذا العقل ليست له علاقة ارتباط بفرضيات العلة الوجودية التي التزم بها المعلم الاول أرسطوطاليس في كونيته (٢٢) .

ومهما كان فاصالة المذهب تتحدد في الواقع بنظرته نحو الاصول والجواهر وانها تحدث عن (كون) هو ظهور عن كمون ، وعن (فساد) هو كمون بعد ظهور ، مع احتفاظ بالكيفيات دون أن يعتمدها التغيير . وقادته أصالته هذه الى محاولة استكشاف المكنون فوضع أصابعه يتلمس الطريق فكان أول متبصر قادته معرفته الى التحدث عن (العقل) ومنزلته ، فوضع المسألة وضعا جديدا لم يسبق مثيله عند الاوائل .

★ ★ ★

١٦ - وفي المرحلة الاخيرة لهذه الحقبة من الفكر اليوناني ظهر تيار تمثل روح الآلية الاصلية، ونهض على دراسة القضايا المتضادة التي أثرت حول فلسفة الوحدة وفلسفة الكثرة في الكون وظواهرهما المتباينة . وحاول أن يتساءل عما اذا كان هذا التضاد يحمل دلالة حقيقية ، أم انه وهم تصدره حواسنا الناقصة ؟ واذا كان الامر كذلك فكيف جاز لنا الحكم عليه ؟ . . وهل ان ظاهرة الكثرة شيء محدد وان الوحدة الكونية نتاج عمل التخيل فحسب ؟ وان الحقيقة ما هي الا احصاء ظاهري للكون اللانهائي في الحركة والتغير ؟ . .

ان الشروح والتفسيرات التي أعطيت لهذه الاسئلة من قبل الانسان اليوناني سابقا كانت

تحمل استقطابا واضحا بين أقصى اليمين الى أقصى اليسار . أما الموقف الجديد فقد كان أكثر بصرا ، واقرب الى طبيعة العلم من حيث انه حاول أولا التعرف على مفاهيم الطرفين المتنازعين ثم قرر أن الكثرة في هذا العالم الصغير لا يمكن أن توضح الا بوساطة تنظيم خاص ينبع من قانون السببيه الذى يحكم الكون العام . بهذه الوسيلة من التدليل ظهر المذهب يحمل في طياته فرضيات تعتمد البناء الذرى للعالم ، بحيث يبدو - ولأول وهلة - كأن له صلة بالتفكر الذرى الحديث ! . . على الرغم من ان البناء الذرى للمادة في الفكر المعاصر بناء ثابت الاسس ، بعيد عن الشكوك والاهام ، بينما لم تكن نشعر بهذه الحقيقة قبل قرن من الزمان ! . .

ولسنا الان بصدد المقارنة بين النظرية القديمة والحديثة للذرة ، فهذا أمر لا نقصد البه ولا يمكن ان تقوم له صفة موضوعية في المقارنة ، بسبب اختلاف النتائج وتباين الانجازات في المرحلتين معا .

والمشكلة التى صادفت الانسان اليونانى نحو فكرة الذرية لم تكن سوى معضلة قابلية الجسم على الانقسام أم عدم قابليته . فتمثلت الفلسفة الطبيعية لديه بهذين الخطبين وبمرحلة زمنية تمتد فتغطي أربعة قرون من الزمان (٢٢) .

ومهما قيل من اختلاف وجهات النظر بين انصار المذهب نفسه ، فالامر في واقعه لا يحتاج الى كثير اهتمام ، لان التباين لديهم لا في الاصل بل في الفروع وتفاصيلها . لان النظرية تنبع من معين واحد وتصدر عن مورد واحد ايضا ، والفرضيات فيها متشابهة ، والحلول الاساسية متفقة ، وكلها مجمعة على أن في الطبيعة (تماثل) analogy ، مؤكدة في موقفها هذا ان المادة لا تستحدث ولا تبنى ، فهى مصونة عن الفساد والاضمحلال . وفي دعواها هذه تقابل واضح للنظرية التى ادعت بان المادة تخضع للتجزئة الى غير نهاية (فقرة ١٥) .

ومالت النظرية الى الاخذ بأولية اعتمدت قيام الخلاء void ، وكأنه صورة لحقيقة مستقلة ، تنهض على قاعدة ان المادة مركبة من ذرات غير خاضعة للتغير ، وان كل تغير يحدث فهو نتيجة لحركة الذرات لا تغير في الذرات نفسها . والضرورة اللازمة لهذه الحركة هو الخلاء . ونستنتج من هذا الرأى انه لا احتمال اطلاقا من وجود الخلاء داخل الذرة ذاتها ، فهى على هذا الاعتبار محل للتغيرات فحسب . واما التأثير الطبيعى فيأتيها من خارج ، والذرة هنا تعبير عما يقابل الخلاء وهو الملاء أو بمعنى آخر (الوجود) الذرى الذى تتصف جزئيا به بانها مصمته صلده ، لانهاية لاعدادها ولا نهاية لتجددها في هذا الكون - وتتمثل اللانهاية هنا بالزمان او بازلية الكون ذاته ، معتمدة على القانون الطبيعى القائل « لا وجود من عدم اطلاقا » Creatio ex nihilo.

ولقد اعتبرت النظرية الحركة في الكون أمرا مسلما به لا حاجة للبحث عن سببه

٢٢ - تنادى لهذا الموقف فلاسفة آليون اهم اثنان في العصر اليونانى الاول هما لوقيس (؟ - ٥٠) ق.م وديمقريطس (٤٦٠ - ٣٦٠) ق.م ويعتبر الاخير حكيم الذرية غير منازع .

تماما كما فرضت وجود الذرات كحقيقة مسلمة سواء بسواء . وعلى الرغم من عدم معرفتها لقانون الحركة الكمي ، فانها اصابت الهدف عندما خصصت لكل ذرة حركة حتمية ، واصفة هذه الحركات بوساطة المصادمات الميكانيكية الاولى المرنة ، فنجحت عند ذاك في الحصول على قانون النظرية الحركية للمادة دون الحاجة في الرجوع الى الرياضيات ، معتمدة على احصائيات ذهنية اولية فحسب . مع تأكدها دائما بان صور الذرات ليست جزءا من الاجسام المركبة بل هناك دوما جزء متروك ، له ان يتحرك بحرية ، تماما كاشكال الصور المهتزة بدبذباتها . ومن هنا فالعالم حدث عن الخلاء ، وذلك بتجمع الذرات وعن تجمعها حدثت اكون لانهاية لعددتها ، ولهاسلطان متباينة وصور مختلفة . والعالم الذي ننتهي اليه هو احد هذه العوالم ، ويمتاز بصورته الواحدة التي تسير بمقتضى القوانين الآلية .

١٧ - ومؤدى هذا الذي قلناه هو ان الوجود (بمعنى الملاء) ينقسم الى اجزاء لانهاية من الصفر حتى ينتهي الى جزء لا يقبل الانقسام ابدا ، ويشغل هذا الجزء الصغير حيزا خاصا به ، ومن هنا سميت هذه الاجزاء الصغيرة بالذرات Atoms وهي متجانسة تجانسا تاما في جوهرها ، وتباينها ظاهري ، ولا يلحقها تغير كيميائي (الوضع) بمعنى ان كل تغير يحدث يرجع الى مقولة الوضع في الذرة ، او الى طبيعة التنظيم الذري نفسه .

وان الصفات التي تبدو في الاشياء تعتمد على (الشكل) و (الحجم) و (الوضع) في الذرات ذاتها . ولسنا نعلم في الحقيقة كيفية تحركها وتجمعها ، لان اقصى ما تدعيه النظرية هو ان تجمع الذرات وتفرقتها هو ما يعبر عنه بعمليات الكون والفساد النسبيين . باعتبار انه لا يجوز عليها الكون المطلق او العدم المطلق .

واما شكل هذه الحركة في الذرات فهو دائري لا بدء فيه ولا نهاية ، يحدث في خلاء لانهاية ايضا ، ولا يدخل (الثقل) او الوزن سببا في هذه الحركة . والفكرة الاخيرة تذكرنا بالنظرية الحركية الحديثة للغازات التي تختفي فيها حركة مستديرة تتشخص بوساطة مصادمات ثابتة لا تتغير ، باعتبار ان الغازات تتحرك دائما وفي حركتها تلك لا يتغير وزنها المطلق ، وانما يتغير الضغط فيها وذلك تحت عوامل معينة كالحرارة والبرودة مثلا .

فموقف الذرة القديمة من الثقل ينهض كما يبدو على المزيجين : الملاء والخلاء في الجسم ذاته . فمثلا عند الذرات بعضها عن البعض الاخر يمثل نوعا من الثقل المقصود في النظرية . واذا اردنا صياغة هذا الرأي بلفة العلم الحديث قلنا ان المذهب ادرك فكرة الثقل نظريا ، ومال الى انها تعتمد على النسيج الشبكي للجسم والوزن الذري معا .

١٨ - واخيرا فان الذرية في علاجها للمشكلات الطبيعية في الكون بدت وبشكل دقيق انها ميكانيكية الاتجاه . حيث ارجعت كل شيء الى حركات المادة والى المصادمات بين اجزائها مبتدئة من فكرة ايجاد العالم ومنتهية الى الادراك وطرائقه .

ولم يكن بالنسبة للنظرية مجال لا قحام اية قوة حركية اخرى تعتبر سببا للتصير الطبيعي ، لان قوة كهذه ستعود غير واعية ولا معقولة . ومن هنا ربطت الذرية نفسها بعلة واحدة لتفسير

التغيرات الطبيعية كافة . فالصورة التي اعطتها للذرات وانها الوحدات الاولية للمادة ، واعتبار التشخص الذرى كرموز بنائية لطبيعة الكون خالية من الكيف وتباين بالاشكال - بقودنا هذا الموقف حتما الى ما نسميه بلغة العصر (ذرى) molecules

وتقدمها كان ايضا فى الخطوات التى احرزتها فى بديهة (التماثل) والاستدلال العقلى بفية الوصول من الامر المنظور الى الامر اللامنظور مستعينة بالتناسق والتجانس والنماذج كصور توضيحية لموقفها .

ومهما كان فالكون الذى تصورته ما زال ممكنا من الوجهة المنطقية ، وهو اقرب نسبها بالعالم الواقعي من اى عالم آخر مما تصوره الانسان اليوناني القديم (٢٤) .

★ ★ ★

١٩ - كانت تلك اهم منازع الانسان اليونانى نحو الكون . احسن بناءها ، واحكم خطواتها ، واشاد معالمها بعقل حكيم بصير ، وفكر فطن وقاد ، وروح علمية متجردة ، وموضوعية تستبطن العقل تارة وتعتمد الحس تارة اخرى ، ويمكث الطرفان المتلازمان لديها (العقل والحس) فى سؤرة من الفكر الحاد، تستهدف الى استكشاف كنه الكون واسرار الطبيعة ، كي تفهم بنفسها على اعتاب ذلك المجهول تتفحصه تفحصا مليا وتستقرأ فيه حقائق الروح والمادة معا . وسواء رجعت عنه بحصيلة من واقع حياتها أو نكصت عنه صفر اليدين ، فموقفها فى الحالين طريف وتليد : يدعو الى استقراء القوى الانسانية لثبيت صورها الصادقة نحو الوجود ، ولتبقى تلك الصور وكأنها قبس ينير للسالكين دروب المعرفة وسبل الحق .

★ ★ ★

مصادر البحث

(١) المراجع العربية

- ١ - ابن سينا - كتاب النجاة - القاهرة ، نشرة الكردى ، ١٩٢٨ .
- ٢ - برجسون (هنرى) منبع الاخلاق والدين ، (الترجمة العربية بقلم د . سامي الدروبي و د . عبد الدائم) ، القاهرة - مكتبة نهضة مصر ، ١٩٤٥ .
- ٣ - خشبة (ديني) - قصة طرواده - القاهرة ، دار الكتب الاهلية ، ١٩٤٤ .
- ٤ - خشنة (ديني) - قصة الاوديسه - القاهرة ، دار الكتب الاهلية ، ١٩٤٥ .
- ٥ - خفاجه (محمد صفر) - النقد الادبي عند اليونان - القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٢ .
- ٦ - ديورانت (ول) - قصة الحضارة - (الترجمة العربية بقلم د . زكي نجيب محمود) القاهرة - دار المعارف ، ١٩٤٩ .
- ٧ - رسل (برتراند) - تاريخ الفلسفة الغربية - (الترجمة العربية بقلم د . زكي نجيب محمود) القاهرة ، نشرة وزارة التربية ، ١٩٥٧ .
- ٨ - سارتون (جورج) - تاريخ العلم - (الترجمة العربية باشراف الجامعة العربية) القاهرة ، مؤسسة فرانكلين ، ١٩٥٧ .
- ٩ - فلوطرخس - في الادارة الطبيعية التي ترضى بها الفلاسفة - (ترجمة قسطنطين لوقا)
(نشر ضمن مجموعة ارسطوطاليس في النفس - تحقيق د . عبد الرحمن بدوى) القاهرة ، ١٩٥٤ .

* * *

(ب) المصادر الاجنبية

1. Aristotle, **Metaphysics**, Oxford transl. by D. Ross, Oxford, 1908.
2. Benardete, J. A. **Infinity, An Essay in Metaphysics**, Oxford, 1964.
3. Burnet, J. **Early Greek Philosophy**, London, Adam and Chales Black, 1963.
4. Burnet, J. **Greek Philosophy**, London, Macmillian, 1968.
5. Finley, J. H. **Four Stages of Greek Thought**, Stanford, Calif., Univeisty Press 1966.
6. Jaeger, W. **Aristotle**, transl. by R. Rabnson, Oxford, Pap. 1962.
7. Jebb, R. C. **Homer, An Introduction to Iliad and Odyssey**, Glassgow, 1898.
8. Joseph, H. **An Introduction to Logic**, Oxford, 1916.
9. Kirk, G. S. and Raven, J. E **The Presocratic Philosophy**, Cambridge, 1957.
10. Nahm, M. **Selections from Early Greek Philosophy**, New York, Appleton Century, Crofts, 1947
11. Plato, **Socratic Discours**, transl. by A. D. Lindsay, Everyman's Lib. 457, London, 1947.
12. Ross, D. **Aristotle**, London, Methuen, 1956.
13. Tarski, A. **An Introduction to Logic**, New York, 1954.
14. Zeller, E. **Outlines of the History of Greek Philosophy**, transl. by R. Palmer, London, Routledge and Kegan Paul, 1955.
